وقلنا : إن العمل فى الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغى أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت فى الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهى ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك فى الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله فى الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هى صفقة ينبغى أنْ تُحْسبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ؛ لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) ﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل] وفى موضع آخر قال سبحانه فى هذا المعنى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] أى : من قبل القرآن ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) ﴾ [الإسراء]

فالخرور أنْ تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحتْ ملَكة وآلية فى المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الذلّة ، وهو فوق السجود الذى نعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى فى شأن سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلما ازدادوا ذلّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا فى الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »[(١)] .

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم[(٢)] :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة . وكذا أحمد فى مسنده (٢/٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) **سبب نزول الآية** : أخرج البزار (٢٢٥٠ - كشف الأستار للهيثمى) عن بلال بن رباح أنه قال : كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦) ﴾ [السجدة] . وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعزاه للبزار وضعّفه بشيخه عبد الله بن شبيب.

التجافى يعنى الترك ، لكن الترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قَالٍ[1] له ، أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كأن جنوبهم تكره المضجع وتجفوه ؛ لأنها تتركه إلى لذة أبقى وأعظم هى لذة الاتصال بالله ومناجاته .

ونذكر هنا أن الإمام علياً رضى الله عنه حينما ذهب ليدفن فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال : السلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، قَلَّ عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلُّدى ، إلا أن لى فى التعزى بعظيم فُرْقتك وفادح مصيبتك موضع تأسٍّ - يعنى : الذى تحمَّل فَقْدك يا رسول الله يهون عليه أىُّ فَقْد بعدك - فلقد وسدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين سَحْرى[2] ونَحْرى نفسك ، أما ليلى فمُسهَّد ، وأما حزنى فَسَرْمَدٌ[3] ، إلى أنْ يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك ابنتك عن حال أمتك وتضافرها على هضمها ... فَأَصْغها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يَطُل منك العهد ، ولم يَخْلُ منك الذكر .

ثم لما أراد أنْ ينصرف عن قبر حبيبه قال : والسلام عليك سلام

---

(١) قليته قِلًى : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . والقِلَى : البُغْض . [اللسان - مادة : قلى] .

(٢) السَّحْر : الرئة والقلب . أى : أنها ماتت وهى مستندة إلى صدره . والنحر : الصدر وهو موضع القلادة منه . [اللسان] .

(٣) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [اللسان - مادة : سرمد] .

مُودِّع ، لا قالٍ ولا سئم ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإنْ أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين .

فقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : تكرهها وتجفوها ، مع أنها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته ، فالإنسان حين تدبّ فيه الحياة ، ويستطيع أنْ تكون له قوة ونشاط يعمل فى الحياة ، فالعمل فرع وجود الحياة ، وبالقوة يمشى ، وبالقوة يحمل الأثقال .

فإذا ما أتعبه الحملُ وضعه عن نفسه ليستريح ، لكنه يستطيع أن يمشى بدون حمل ، فإنْ أتعبه المشى وقف ، فإذا أتعبه الوقوف جلس ؛ لذلك يحدث أن تقول لصاحبك : لو سمحت احمل عنى هذا الحِمْلَ فيقول : يا شيخ ، هل أنا قادر أن أحمل نفسى ؟

إذن : التعب فى هذه الحالة ناشىء من ثقَل الجسم على القدمين فيتعبه الوقوف ، ألاَ ترانا إذا أطال الإمام فى الصلاة مثلاً نراوح بين القدمين مرة على هذه ، ومرة على هذه ، أما القعود فيريح الإنسان ؛ لأنه يُوسِّع دائرة العضو المحتمل ، فثقَل الجسم فى حالة القعود يُوزَّع على المقعدة كلها ، فإذا بلغ به التعَب حداً بحيث أتعبه القعود فإنه يستلقى على جنبه ، ويمد جسمه كله على الأرض فيتوزع الثقل على كل الأعضاء ، فلا يحمل العضو إلا ثقله فقط .

فإنْ شعر الإنسان بتعب بعد هذا كله تقلَّب على جنبه الآخر أو على ظهره ، هذه كلها ألوان من الراحة لجسم الإنسان ، لكنه لا يرتاح الراحة الكاملة إلا إذا استغرق فى النوم ، ويُسمُّون هذا التسلسل متواليات عضلية .

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذى تشعر به حال اليقظة - إنْ كنت تتألم من مرض مثلاً - وهذه كلها متواليات يمر بها المؤمن ، وبالتالى إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعِث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهى مراحل نمرُّ بها إلى أنْ نرتمى فى حضن خالقنا عز وجل .

إذن : فالمضاجع آخر مرحلة فى اليقظة ، ولم تأتِ إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم فى الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ، ويُزهِّدهم فيها ، فيجفونها ليقفوا بين يدى الله .

وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** (١٧) ﴾ [الذاريات] ثم يقول سبحانه : ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ..** (١٦) ﴾ [السجدة] أى : يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كأن الدعاء مجرد الدعاء يريحهم ، لماذا ولم يُجَابوا بعد ؟ قالوا : لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ ، ثم إن حلاوة لقائهم بربهم فى الصلاة تُنسيهم التعب الذى يعانون .

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿ **خَوْفًا وَطَمَعًا ..** (١٦) ﴾ [السجدة] أى : خوفاً مما حدث منهم من تقصير فى حق الله ، وأنهم لم يُقدِّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿ **وَطَمَعًا ..** (١٦) ﴾ [السجدة] أى : فى المغفرة ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (١٦) ﴾ [السجدة] والمراد هنا الزكاة .

لذلك نرى فى قوله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..**

﴿ (١٦) ﴾ [السجدة] أن هذا التجافى كان بقصد الصلاة ؛ لأن القرآن عادةً ما يقرن الصلاة بالزكاة ، فقال بعدها : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون (١٦) ﴾

[السجدة]

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ[1] أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

قلنا : إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخَلْق ، ولم يُعْطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أنْ يُجازى عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته .

وهذه الإمكانات لا نستطيع نحن التعبير عنها ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وُجد المسمى والمعنى أولاً ؛ لذلك قال تعالى فى التعبير عن هذا النعيم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

وقال النبى ﷺ عن الجنة : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] إذن : كيف نُسمِّى هذه الأشياء ؟ وكيف نتصوَّرها وهى فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله .

---

(١) القرة : كل شىء قرَّتْ به عينك . ويقال : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب - مادة : قرر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم ألاَ ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥) ﴾ [الرعد] أى : أن ما نعرضه عليك ليس هو الجنة ، إنما شبيه بها ، أما هى على الحقيقة ففوق الوصف الذى تؤديه اللغة ، فأنا أعطيكم الصورة القريبة لأذهانكم .

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذى يضربه لنا من شوائبه فى الدنيا ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير فى الجرار ، فنقَّاه الله من هذه الآفة .

وكذلك فى ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥) ﴾ [محمد] وكان العربى إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] وآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل ، وتذهب به ، وليس فى شربها لذة ؛ لذلك نرى شاربها والعياذ بالله يتجرَّعها مرة واحدة ، ويسكبها فى فمه سكْباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الخمر يمتصُّها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلذة شربه ؟

وقد وصف الله خمر الآخرة بقوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ(١) وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٢) (٤٧) ﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكر . وقال أبو عبيدة : الغَوْل أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) أنزف القوم : نفد شرابهم . وأنزف القوم إذا ذهب ماء بشرهم وانقطع [لسان العرب ـ مادة : نزف] . قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقيء والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . [نقله ابن كثير فى تفسيره ٤/٧] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] فوصف العسل بأنه مُصفًّى ؛ لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلَق به من الحصى والشوائب حين ينحدر من بيوت النحل فى الجبال ، فصفَّى الله عسل الآخرة من شوائب العسل فى الدنيا .

ومهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عَظُمَتْ إمكاناتنا فى الدنيا ، فلن نرى فيها نهراً من الخمر ، أو من اللبن ، أو من العسل ، ثم إن هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر ، وهذه طلاقة القدرة التى لا حدود لها .

إذن : الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة ، وحين يَصِفُها يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يُنقِّى هذا المثال مما يشوبه فى الدنيا .

ومن ذلك أن العربى كان يحب شجرة السِّدر أى النبق ، فيستظل بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينغص عليه هذه اللذة ما بها من أشواك لا بُدَّ أنْ تؤذى مَنْ يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى فى نعيم الجنة قال عنها : ﴿فِي سِدْرٍ[1] مَخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] أى : منزوع الشوك ، فالمتعة به تامة لا يُنغِّصها شىء .

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن الحور العين : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤)﴾ [الرحمن] فنفى عنهن ما يُنغِّص على

---

(١) السدر : شجر النبق والسدر من الشجر سدران : أحدهما برى لا يُنتفع بثمره ، وثمره لا يسوغ فى الحلق . والسدر الثانى ينبت على الماء ، وثمره النبق أصفر مُزٌّ . [لسان العرب ـ مادة : سدر] . المخضود : هو الذى خُضِد شوكه فلا شوك فيه .

(٢) طمثت المرأة : حاضت . فهى طامث . والطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتدمية . فمعنى لم يطمثهن إنس أى : لم يمسسهن أحد .

الرجل جمال المرأة فى الدنيا ، وطمأنك أنها بِكْر لم ينظر إليها أحد قبلك .

لهذا قال تعالى عن نعيم الجنة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة] والقرة والقُرور أى : السكون ، ومنه قرَّ فى المكان أى : استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر فى المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته ، فإذا أردتَ أنْ تستقر فى مكان أو تشترى شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق .. الخ .

حتى نحن فى تعبيراتنا العامية وفى الريف الذى يحتفظ لنا بخصائص الفطرة النقية التى لم يَشُبْها زيف الحضارات ولا زخرفة المدينة ، وهذه الفطريات تستهوى النفوس وتجذبها ، بدليل أن الإنسان الحضارى مهما بلغ القمة وسكن ناطحات السحاب ، وتوفرتْ له كل كماليات الحياة لا بُدَّ أنْ يأتى اليوم الذى يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترتاح نفسه ، ولا تستقر إلا فى الريف ، فيقضى هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه ، وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند) .

فمعنى (قرة العين) أى : استقرارها على شىء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشىء إلا إذا أعجبها ، ورأتْ فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه مليانة) يعنى : لا يحتاج مزيداً من المرائى غير ما يراه (وفلان عينه فارغة) يعنى : لا يكتفى بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فينظر هنا وهناك .

ففى الجنة تقرّ العيون بحيث لم يَعُدْ لها تطلعات ، فقد كَمُلَتْ لها المعانى ، فلا ينبغى لها أنْ تطمع فى شىء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١) ﴾ [طه]

فالإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه زائغ العينين ، ينظر هنا وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها .

ومن معانى مادة (قرّ) القُرُّ وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى يَكْنُون به عن سرور النفس ، فالعين الباردة أى : المسرورة ، أما العين الساخنة فهى الحزينة المتألمة .

ومن المعانى أيضاً لقرور العين سكونها وعدم حركتها لعلَّة أو عمى ، ومن ذلك قول المرأة التى دخلتْ على الخليفة فقالت : أقرَّ الله عينك ، وأتمَّ عليك نعمتك . ففهم الحاضرون أنها تدعو له ، فقال : والله ما دعتْ لى ، إنما دعتْ علىَّ ، فهى تقصد أقرَّ الله عينك يعنى : أسكنها فلا تتحرك ، وأتمَّ عليك نعمتك . أى : أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمتْ زالت ، فلا شىء بعد التمام إلا النقصان .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه هذا النعيم الذى أخفاه لعباده المؤمنين فى الجنة بأنه ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] وهذه أثارت معركة بين العلماء هى معركة الأحباء : فريق قال إن المؤمن يدخل الجنة بعمله ، كما نصَّتْ هذه الآية أى : أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، وفريق قال : بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء فى قول الحق سبحانه

وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

وقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته»[2] .

فلما حميَتْ هذه المعركة أرادوا أنْ يوحدوا هذين الرأيين ، ويُوفِّقوا بينهما ، فقالوا : لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مُقومات حياته قبل أنْ يوجد ، ثم تركه يرتع فى نِعَمه دون أنْ يطالبه بشىء حتى بلغ سِنَّ التكليف .

فإذا ما كلَّفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أنْ يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء فى الآخرة ليس على العمل ، إنما محْض فضل من الله على عباده .

إذن : حينما تؤدى ما كلَّفك ربك به كأنك تجازى ربك بطاعته على سابق إحسانه إليه ، فكأن الجنة ونعيمها زيادة وفضل من الله ، فالله سبحانه له الفضل عليك فى الأولى ، وله الفضل عليك فى الآخرة .

ثم إن الحق - تبارك وتعالى - حين يُشرِّع لك ويكلِّفك ، فشَرْعه وتكليفه فى ذاته فضل ، ألاَ ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تضاعف إلى أضعاف كثيرة ، ونحن مِلْكه سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا .

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله يتغمدنى : يلبسنى ويتغشانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتى بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن]

وحين يُحسن العبد فى التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾

أولاً : نلحظ فى اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتى للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعى السياق لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا (١٨)﴾ [السجدة] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الواحدى وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى بن أبى طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق . فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦] .